ISSN: 1112-9336 مجلة آفاق علمية
رقم العدد التسلسلي 18 المجلد: 11 العدد:01 السنة 2019

تاريخ الإرسال: 2018/03/19 تاريخ القبول:2019/03/14

قلق الهويّة في خطاب إدوارد سعيد . خارج المكان وتأمّلات حول المنفى

Identity concern in Edward Said's speech - out of the place and reflections on exile-

صورية مكاحليّة
sorrayamekahlia@gmail.com
جامعة العربي التبسيّ، تبسة

ملخص البحث

عدّت بواعث النزوح عن المكان وجغرافيّة الارتحال ثيّمات أساسيّة في نشوء هويّة مضطربة/قلقة لدى إدوارد سعيد، فقد أجبره المنفى بأن يعيش على الحدود بين تلك الفرجات البينيّة، تتجاذبه تيّارات عديدة دون أن ينتمي لأيّ منها. شكّل هذا الهاجس الهووي في حياة إدوارد سعيد كتابة هدفها إيجاد ذات لعبت فيها ثنائيّة الأنا/ الآخر دورا في تشظّيها، فلم يجد نفسه إلاّ في المكان الخطأ؛ فجاءت سيرته الذاتيّة "خارج المكان" بمثابة البديل في إيجاد مكان عبر المتخيّل، لذلك ارتأينا أن تكون هذه الورقة البحثيّة محاولة للإجابة عن التّساؤل: كيف تحوّل نوستالجيا المكان و قلق الهويّة إلى إبداع عند إدوارد سعيد؟

الكلمات المفتاحية: إدوارد سعيد؛ المنفى؛الهويّة؛خارج المكان.

Abstract :
The causes of displacement was considered for a place and a geographical alienation which are key elements in the emergence of a troubled identity of Edward Said, as exile has forced him to live on the border between these interstices interfaces.Best by numerous streams without belonging to any of them. This anxiety molded in the life of Edward Said Writings, which objectives, are the finding of ‘bilateral ego / the other’ played a role in the dispersion, and finding himself only

in the wrong place as came in his autobiography "out of place",thus, writing becomes a place to live and to live, without a geographical location verification, as we decided that this paper would be an attempt to answer the question:How do you transform a place nostalgia and identity anxiety into creativity?
Key words: Edward Said; exile; identity; out of place.

مقدّمة:

لا غرو أنّ الصّراع الهووي حالة يعيشها المنفيّ، فذاته تعاني الانشطار والشّرخ بين هوية تركها تعبّر عن موروثه الثقافي الأصل،وهوية جديدة في أرض المنفى ذات رؤى مختلفة عن الأصلية وبخاصة إذا كان الاختلاف جوهره المعاداة والصدام الصريح بين الشرق والغرب،فيعاني مسألة الاجتثاث والاقتلاع،يعيش حالة دائمة من الغربة والابتعاد في الهامش،يتولّده شعور متواصل بالانشقاق عن السّياق والحنين الدّائم إلى ماض وأرض وثقافة لم تعد كلّها موجودة في المنفى.

يعتبر الناقد والمفكر الفلسطيني الأمريكي **إدوارد سعيد**_ الذي تكلم لغة لم يدر إن كانت هي التي نطقها أول مرّة أم أنها لغة تعلّمها جبرا وإكراها في وطنه وبها انتسب إلى وطن آخر ليس وطنه الأصل_ واحدا من أولئك النقّاد الذين عاشوا خارج المكان يعاني قلقا هوويّا بين هويّة عربيّة فلسطينيّة وهويّة غربيّة أمريكيّة، داعيا إلى الهجنة الثّقافيّة، لذلك ارتأينا أن تكون هذه الورقة البحثيّة محاولة لبحث إشكالية مفهوم المنفى في حياة إدوارد سعيد الشخصية والأكاديمية؟ وكيف انقلب المنفى ونوستالجيا المكان في حياته إلى إبداع؟ وإلى أيّ مدى يمكن القول أن الهجنة الثّقافية تحققت في عالم لا زال الصّراع فيه محتدما بين الشرق والغرب؟

أوّلا-المنفى والذاكرة ونوستالجيا المكان:

شكّل المنفى جزءا مهما في نتاج إدوارد سعيد الفكري والنقدي، وفي جل المقابلات التي أجريت معه وبأخص في الكتابات التي عبر فيها عن تجاربه الشخصية، **كتأملات في المنفى وسيرته الذاتية خارج المكان**،فقد عبّر في هذه

الأخيرة عن مسيرته في الحياة والتي كانت عبارة عن «جغرافية الارتحال،من مغادرة ووصول ووداع ومنفى وشوق وحنين إلى الوطن وانتماء ناهيك عن السفر ذاته»[1].

اعتبرت حياة إدوارد سعيد سلسلة من المنافي، تعدّدت فيها الأمكنة فقد ولد في فلسطين سنة 1935م لعائلة مسيحية مكوّنة من أب فلسطيني يحمل الجنسية الأمريكية، وأم فلسطينية تحصلت في طور متأخر من حياتها على الجنسية اللبنانية وكان أبواه يقيمان بشكل متقطّع بين فلسطين حينا،ومصر أحيانا،فاكتنفت نشأته طفلا ويافعا ازدواجيّة العيش بين حي الطّالبية بالقدس الغربية طورا وبين حي الزمالك بالقاهرة حينا،والرّحلات التي كانوا يتوجّهون فيها إلى لبنان وبخاصة ظهور الشّوير.

بدأ دراسته في مدرسة الجزيرة الإعدادية منذ 1941 إلى غاية 1946 ثم انتقل إلى مدرسة القاهرة للأطفال الأمريكيين بصفته ابن رجل أعمال أمريكي في الفترة ما بين 1946 إلى غاية 1949، ولكن هذه المرحلة من دراسته تخلّلتها فترة انقطاع تمّ تعويضها بانتسابه إلى مدرسة سان جورج بالقدس حين عادت عائلته إلى فلسطين، وخلال عامي 1949و1951 انتسب إلى كلية فيكتوريا كولدج بالقاهرة منهيا بها دراسته الثانوية وفي سنة 1992 زار فلسطين مع زوجته وولديه في أول زيارة لها منذ خمس وأربعين سنة.

تظهر من خلال هذا المقطع الذي يلخص حياة سيرته كرونولوجيا بأن إدوارد سعيد فعلا عاش حياة منفيّ بامتياز بين البيئة العربية والبيئة الأمريكية، واعتبرت الأمكنة التي سافر إليها والتي رحل منها (القدس،القاهرة،لبنان) أمكنة مفقودة في منفاه في الولايات المتحدة الأمريكية،فأجبره الحنين إليها بأن يستعيدها من جديد تحت تأثير اشتغال الذاكرة،وتحفيزا من المرض الذي أصيب به بعد التّشخيص الطبّي الذي أجراه سنة 1994،وإفادته بأنه مصاب بمرض اللّوكيميا بكتابة ما استعادته ذاكرته من أمكنة فكانت مذكّراته خارج المكان عبارة عن «سجل لعالم مفقود أو منسي»[2].

فكان زمن كتابة السيرة متوافقا مع زمن المرض فتداخلت الكتابة التي هي«انتقال من كلمة إلى كلمة [مع] مكابدة المرض الذي هو اجتياز لخطوات متناهية القصر تنقلك من حالة إلى أخرى»[3]،فقد قوّض إدوارد سعيد مفهوم المنفى من

مدلوله السلبي، لابتعاد الشخص عن وطنه إلى شيء إيجابي يستطيع المنفي من خلاله الكتابة عن الأوطان التي خلّفها وراءه عن طريق استحضار الجغرافيا التي «لا تحفّز الذاكرة فحسب بل الأحلام والفانتازيا والشعر والرسم والفلسفة والأدب الروائي والموسيقى»[4].

كان الرّوائي البولوني جوزيف كونراد واحدا من الّذين تأثّر بهم إدوارد سعيد وتقاسم معه حياة المنفى،لكن منفى كونراد يختلف عن منفاه،إذ عاش كونراد« في بولونيا بلد سلافي، فيما انجلترا بلد أوروبي غربي،يبقى أنّ العالم الذي نشأ فيه كونراد...ضمن أوروبا،وأمّا في حالتي فالفارق بين الإنجليزية والعربية يتخذ شكل توتر حاد غير محسوم بين عالمين مختلفين كلّيا بل متعاديين العالم الذي تنتمي إليه عائلتي و تاريخي و بيئتي و ذاتي الأوّلية الحميميّة، وهي كلّها عربية وعالم تربيتي الكولونيالي وحساسياتي المكتسبة ومجمل حياتي المهنية معلما وكاتبا من جهة أخرى» [5]، يبدو منفى كونراد منفى داخل جغرافيا واحدة،بينما منفى إدوارد سعيد منفى بين عالمين مختلفين كل الاختلاف جغرافيا ولغويا ومن حيث العادات والتقاليد وأكثر من ذلك أنهما متعاديين،فكيف سيتحقق المكان لشخص يعاني تمزّقا بين عالم عربي شرقي وعالم إنجليزي غربي؟

لم يحقّق كلّ من إدوارد سعيد و جوزيف كونراد المكان ببعده الجغرافي بل أصبحت الكتابة « بالنسبة إليهما مكانا للعيش »[6]؛لأنّ فيها حضورا لعالم مفقود على مستوى الذاكرة،وغيابا للعالم أو الوطن الحقيقي الذي يمثّل فيه الإنسان ذاته،لكن حضور المكان على مستوى الكتابة لم يمح ما يخلّفه المنفى من حزن «إنّه الشرخ المفروض الذي لا التئام له بين كائن بشري ومكانه الأصلي،بين الذّات وموطنها الحقيقي: فلا يمكن البتّة التغلب على ما يولّده من شجن أساسي ...فمآثر المنفى لا ينى يقوضها فقدان شيء ما خلفه المرء وراءه للأبد»[7].

فقد فرضت الحياة الجديدة مع العصر الحديث على المهمشين/المضطهدين في بلادهم أن يهجروا أوطانهم فغدا«المنفى أمرا دنيويا على نحو لا براء منه وتاريخي بصورة لا تطاق،وأنه من فعل البشر بحق سواهم من البشر،وأنّه شأن الموت

إنما من غير نعمة الموت الأخيرة،قد اقتلع ملايين البشر من منهل التراث والأسرة والجغرافيا»[8]،لماذا يعاقب البشر بالنفي؟وهل المنفى أحد أقدار الثنائية(المركز، الهامش)؟ وإذا أخذنا بالقول الأخير أن المنفى قدر المهمّشين، فماذا عن منفى الفلسطينيين؟

يعتبر منفى الفلسطينيين من أغرب مصائر المنفى وذلك لأنّهم«يشعرون أنّهم قد تحوّلوا إلى منفيين على أيدي اليهود ذلك الشعب الذي يضرب به المثل في النفي ولعلّ هذا أن يكون أغرب مصير بين مصائر المنفى أن تكون منفيا من قبل منفيين أن تتجدّد عملية الاقتلاع على يد منفيين»[9]،إذن منفي من قبل منفي آخر،فهذا شكل غريب كما يصفه إدوارد سعيد عن منفى الفلسطينيين، وهو المنفى ذاته الذي عاشه لأنه كان منفيّا إلى الولايات المتحدة الأمريكية بفعل منفيين آخرين وهم أسرته، فقد نفي إلى الولايات المتحدة الأمريكية باعتبارها المكان الأنسب للتّعليم من قبل والديه المنفيين من فلسطين.

فقد جسّد تجربته التي تقاسم شجنها مع منفيي فلسطين في مذكراته خارج المكان التي كانت سردا لحياته الخاصة وفي الوقت ذاته سردا لمنفى الفلسطينيين باعتبارهم عاشوا المصير نفسه «فكانت القضية الفلسطينية بتجربتها العينية التي عاشها طفلا واختبرها شابا وكهلا هي المحرك الأول [لنشاطه] الذهني»[10] في مؤلفه خارج المكان وفي مؤلفاته الأخرى.

ففي سيرته الذاتية خارج المكان أكد على فلسطينيته ونضاله المستمر في التحدث باسم الكثير من الفلسطينيين اللاّجئين والمنفيين،والمشردين في جميع أنحاء العالم محاولة منه إثبات هويّة قوميّة أصبحت صعبة المنال في خضمّ الانقسامات والتشتّت والتشرّد،راسما أبعادا للمكان مقوّضا ما عملت إسرائيل جاهدة لتحقيقه«وهو تغيير معالم المكان وطمس وجهه الجغرافي حتى لا يبقى فيه مكان تنطلق منه الرواية حاضرا ومستقبلا،وإن انطلقت في أحسن الأحوال فإنها تكون محرومة من الاستمرارية حاضرا ومستقبلا أيضا،وهكذا يلتقي البعد المكاني بالبعد الزمني»[11].

كان للنّص دور مهم في أن يروي إدوارد سعيد رواية فلسطين في سياقات متعدّدة وجعلها أولى روايات المهمّشين والمظلومين في العالم،«وقد أشهد العالم ليس على سبي المقدسات وحسب وإنّما على اغتصاب الأرض وجغرافية الوطن،وعلى طمس تاريخ النّاس واقتلاعهم من جذورهم ورميهم بعيدا عن بحرهم المتوسط الذي عاشوا فيه قرونا طويلة»[12].

أصبحت الكلمات عالما و الأحداث حياة «والأسماء كينونة وواقعا كما نسي المكان المعادي الذي يحيا فيه ويعيش في المكان الآخر،المكان غير الموجود إلا على الورقة البيضاء،وهكذا يهرب من هذا الوجود الحقيقي الواقعي والذي لا يحبه ولا يرغب فيه إلى إمكان ذاك الوجود المتوهم والمتخيل،يهرب من الجغرافيا الحقيقية الغريب عنها إلى الجغرافيا المتخيّلة»[13]،كلّ هذا كان بفضل الكتابة التي جسّرت الحدود المتباعدة بين المنفيّ المبعد عن وطنه،والوطن الذي استعيد عن طريق الذاكرة فكانت فلسطين جغرافيا متخيّلة استعادها إدوارد سعيد حتى يجعل من المنفى المكان المعاش فيه غائبا، بينما يحضر المكان المتخيل الذي هو فلسطين في كتاباته.

كان كاتب منفى متمردا على منفاه، واقفا عند حدود العالمين دون أن ينزاح إلى أي منهما،دائم الانشغال بمواضيع تخص عالمه الأول العربي،دون أن ينسى عالمه الذي يعيش فيه،يقول في الثقافة والإمبريالية«لقد نشأت لأسباب موضوعية لم يكن بوسعي السيطرة عليها،عربيّا ذا تعليم غربي،ومنذ أقصى لحظة أستطيع استتكارها أحسست بأنّني أنتمي إلى كلا العالمين،دون أن أكون كلّية جزءا عضويا من أيّ منهما... بيد أنّني حين أقول "منفيّ" فأنا لا أعني ما هو حزين أو محروم بل على العكس،ذلك أن انتماءك إلى كلا ضفتي الفالق الإمبريالي يتيح لك أن تفهمها بسهولة أكبر»[14].

لم ينتم إلى اليمين المتمثل في العالم العربي وفي الوقت ذاته لم ينتم إلى اليسار العالم الغربي،فلماذا تحضر فلسطين في جل كتاباته؟ ولماذا يدافع عن حق الفلسطينيين بلغة الآخر؟ هل اللغة الإنجليزية هي التي أتاحت الوسطية المكانية أم أنها سبب في انتمائه للضفة الأخرى من العالم ؟

لم يقتصر منفى إدوارد سعيد على منفى المكان فقط، وإنما عاش المنفى داخل عالمه العربي وكان منفى مزدوجا منفى المكان واللغة؛لأنه نشأ على العربية وكتب باللغة الانجليزية، فأيّهما أشدّ وطأة منفى المكان أم منفى اللغة؟ وما هي الامتيازات التي قدّمها منفى اللغة لإدوارد سعيد؟

ثانيا- ازدواجية المنفى: منفى الجغرافيا ومنفى اللغة:

لي اسمان يلتقيان ويفترقان
ولي لغتان، نسيت بأيّهما
كنت أحلم
لي لغة انكليزية للكتابة
طيعة المفردات
ولي لغة من حوار السماء
مع المقدس، فضية النبر
لكنها لا تطيع مخيلتي

كان اختيار هذه الأبيات لمحمود درويش والتي كتبها معبرا فيها عن حياة إدوارد سعيد المتناقضة ليس هكذا وفقط، بل لأنّها فعلا تجسد حياة إدوارد سعيد المتناقضة،وهويته اللاثابتة، فمهما أراد المرء أن يحصر شخص إدوارد سعيد ويعطي بطاقة هوية له في مكان معين أو لغة معينة فذلك أمر عسير وإن جاز لنا القول مستحيل،فهو أمريكي وهو فلسطيني ثم إنه ليس بأمريكي ولا فلسطيني،إنها عدمية محضة ينتمي ولا ينتمي تلك هي ذات المنفي التي عاشت وفقا لتجربة المنفى تلك التجربة التي « لا تنحصر في الهجرة من مسقط الرأس والإقامة في بلد آخر »[15] بل تتعدى إلى أهم من ذلك، أن يعيش مجزء و مشطورا،فالجسد مقيم حيث ولد والعقل يتغذى من عالم لم يولد فيه،ومن ثقافة ليست ثقافته،والمنفى أيضا عندما تتكلم لغة أخرى،داخل اللّغة الأم وبالتالي تغدو اللغة منفى أو منفى اللغة.

وما زاد الهوّة بين العربيّة والإنجليزيّة عدم الموازاة بين طرفي اسمه الّذي كان شقّه الأول (إدوارد) وهو اسم انجليزي والشّق الثاني (سعيد) وهو اسم عربي وكأنّ

الاسم أيضا منفي بين عالمين مختلفين،وساهم أيضا في زيادة المنفى المزدوج بين المكان واللّغة،هذا القلق المكاني واللّغوي الذي عاشه إدوارد سعيد حتى في أقرب العلامات إليه بمعنى اسمه كان سببه عائلته إذ«تخترع جميع العائلات آباءها وأبناءها وتمنح كل واحد منهم قصة وشخصية ومصيرا،بل إنها تمنحه لغته الخاصة وقع خطأ في الطريقة التي تمّ بها اختراعي وتركيبي في عالم والديّ»[16].

تعدّى الضّيم الذي يعانيه إدوارد سعيد ضيم اللغة العربية على الانجليزية أو العكس إلى ضيم المكان فكان مزدوج النفي والضيم نفي المكان ونفي اللغة « فلا أنا تمكنت من السيطرة على حياتي العربيّة في اللّغة الانجليزيّة ولا أنا حقّقت كليّا في العربية ما قد توصّلت إلى تحقيقه في الانجليزيّة هكذا طغى على كتاباتي كمّ من الانزياحات والتّغايرات والضّياع والتشوّه »[17].

كتب إدوارد سعيد باللّغة الإنجليزية وتكلّم هذه اللغة،فكانت جل أعماله باللّغة الإنجليزية،ويغرف فيها من حياته ففي خارج المكان وفي كتابات أخرى مثل:تأملات حول المنفى،القضية الفلسطينية... يستعيد فيها ذكريات وأمكنة عاشها في البيئة العربية،لا في البيئة التي كتب فيها،على نحو ما فعله كونراد«رغم أنّ كونراد اختار منفاه بنفسه،كما اختار الانتماء إلى الثقافة الانجليزية بمحض إرادته،فيما دفع إدوارد إلى اختيار الثقافة الإنجليزية من قبل والديه وشرد من وطنه،مثله مثل بقية أفراد عائلته ومثل أعداد كبيرة من شعبه الفلسطيني بسبب الإرهاب الصهيوني وقيام دولة إسرائيل على أرض فلسطين التاريخية»[18].

عدّ منفى كونراد اختياريا لأنه كان بمحض إرادته أن ينتقل إلى بريطانيا ويكتب باللغة الانجليزية عن ماض كان في بولونيا، بينما إدوارد سعيد يرى أن منفاه قسري إجباري سببه والداه،وتعليمه الكولونيالي في بيئة مصريّة فأجبر على المنفى مثل باقي شعبه الفلسطيني، هذا المنفى أوجد حالة القلق الوجودي مكانيا ولغويا،فقد فاق هذا القلق في كتابات إدوارد سعيد كما يرى قلق كونراد في كتاباته.

فقد تجلّى الفارق «بين لغتي العربية الأم والانجليزية التي نشأت عليها واستخدمتها في كل ما كتبته تقريبا أكبر من ذلك الفارق بين اللغة البولونية

والانجليزية التي وسم بها أدب كونراد،وحتى لو اعترفنا بأن بولونيا بلد سلافي،فيما انكلترا بلد أوروبي غربي،يبقى العالم الذي نشأ فيه كونراد واللغة التي استخدمها في أعماله ظلاّ محصورين ضمن أوروبا بوصفهما وجهين لمنطقة واحدة،أما في حالتي أنا فالفارق بين الانجليزية والعربية يتخذ شكل توتر حاد غير محسوم بين عالمين مختلفين كليا بل متعاديين »[19].

مثّلت المعاداة بين الشرق والغرب بالنسبة لإدوارد سعيد سببا رئيسيا في استعمال اللغة الانجليزية وغياب اللغة العربيّة أو العكس؛كون هاتين اللّغتين من بيئتين مختلفتين كلّيا ويمثل أحدهما مركزا في حين الآخر هامشا،فكان إدوارد سعيد يرى أن منفى كونراد اللغوي أقل حدة من منفاه،كون الأول منفاه ضمن أوروبا بينما الثاني فمنفاه تعدّى الحدود العربيّة إلى حدود أخرى غربيّة.

كلّ هذا كان من شأنه أن يولّد في حياته حالة من القلق المكاني لعدم ركونه في أيّ مكان هذا من جهة ومن جهة أخرى تعدّدت الأمكنة في حياته بين القدس ومصر ولبنان وأخيرا منفاه إلى الولايات المتحدة الأمريكية إضافة إلى الانشقاق اللّغوي بين العربيّة والإنجليزيّة الذي زاد من حدته اسمه،الذي كان يمثل ثنائية ضدية بين الانجليزية والعربية،والقلق الذي لاقاه في مدارس القاهرة التي درس بها نتيجة انقسام اسمه بين شق عربي يعزز الانتماء العربي ونظيره الانجليزي الذي يعزز الانتماء إلى الغرب،فإلى أي منهما ينتمي إدوارد سعيد؟ وهل الدفاع باللغة الانجليزية عن حقوق المهمشين (الفلسطينيين) يعني الهوية الفلسطينية والعربية؟ أو كيف تجلت الهوية السّعيدية في كتاباته ؟

ثالثا-قلق الهوية نحو الهجنة الثقافيّة:

والهوية؟قلت

فقال: دفاع عن الذات...

إن الهوية بنت الولادة، لكنها

في النهاية إبداع صاحبها، لا

وراثة ماض، أنا المتعدد... في

داخلي خارجي المتجدد . لكنني
أنتمي لسؤال الضحية. لو لم أكن
من هناك دربت قلبي على أن يربّي
هناك غزال الكناية. ..
فاحمل بلادك أنى ذهبت وكن
نرجسيا إذا لزم الأمر.

تميّزت حياة إدوارد سعيد وبشكل خاص بعدم الاستقرار والنزوح الدائم كنتيجة حتمية لحياة المنفى فعلى خلفية ما ولّده المنفى من قلق وازدواج في المكان واللغة زادت الهوة الوجودية بالنسبة إليه،باعتباره عاش في عالمين مختلفين كل الاختلاف فتعزز لديه الشعور بإشكالية الانتماء التي ترتبط ارتباطا وثيقا بمفهوم الهوية الذي يصعب حصره لارتباطه بالعديد من الحقول المعرفية فلسفية كانت أم سيكولوجية أو سوسيولوجية فالانتماء إلى«"الجماعة المتخيلة" كما أسماها بندكت أندرسون يمثل الشرط الأساس للتعبير عن الذات وتحقيق الذات وحسب ميلر فإن مثل هذه الهوية تساعدنا بأن تضعنا في العالم فتخبرنا من نحن؟ ومن أين جئنا؟ وما قمنا به »[20].

تصبح الهوية بهذا المعنى تحديدا للذات في الزمان والمكان بمعنى الانتماء إلى جماعة ثقافية معينة، كما يرى هول أنّ«هويّة الفرد تتشكل فقط من تفاعل الفرد مع الآخرين ونظرة الفرد للآخرين تتشكل جزئيا من طريقة نظر الآخرين لذلك الفرد ... وبامتلاك الأفراد لهوية معينة هم إنما يتمثلون (internalize) قيم ومبادئ معينة ... تصاحب تلك الهوية،فهي تسمح لسلوك الأفراد ليكون مشابه من جانب الآخرين وكذلك تجعل السلوك في المجتمع أكثر نمطية وانتظاما »[21].

لكن في حالة مفكرنا فلم يحض بالانتماء إلى جماعة معينة وبخاصة حينما كان في القاهرة،فقد أحسّ بأنّه بلا هوية أبدا،لأنّه لم يكن ينتمي إلى الثقافة الإنجليزية وفي الوقت نفسه ينتمي إليها من حيث اللّباس والمدارس التي كان يدرس فيها والأفكار التي يتلقّاها عنها الثّقافة الإنجليزية؛إلاّ أنّه في نظر الإنجليز الكولونياليين ذو هوية عربيّة مصريّة فكانت«هويّتي المصريّة المركّبة والملتبسة بل والمريبة وكوني

عادة في غير مكاني، أمثّل شخصا بلا ملامح محدّدة ولا وجهة معروفة أتجه إليها»[22].

هذا الارتباك الهووي بين هوية إدوارد سعيد في مصر بصفته عربي،وبين هويته كأمريكي نتيجته الشعور«بامتلاك هويّة مضطربة أنا الأمريكي الذي يبطن هويّة عربيّة أخرى لا استمدّ منها أيّة قوّة بل تورثني الخجل والانزعاج »[23].

وذلك نتيجة النّظرة الغربيّة للذّات العربيّة على أنّها دونيّة ولن ترقى إلى صفة الإنسانية،وما دام إدوارد سعيد يتلقّى تعليمه في مدارس كولونيالية رأى أنه في غير مكانه بفعل ما كان يمارسه هؤلاء من تمييز وتصنيف وتراتبيّة للإنجليز على العرب المتأمركين،ففي فكتوريا كولدج«شعرت أن لا شيء في منزلي أو عائلتي أعدّني لكلّ ذلك، كنت وحدي حقّا شخصيّة مجهولة وغريبة سوف تبتلعها قريبا الآليات المعقّدة لمكان واسع مثبط للهمم... وزّعتنا الإدارة إلى فرق لمزيد من غرس إيديولوجيا الإمبراطورية البريطانية وتوطينها فينا»[24].

تحدّدت في هذا المناخ الكولونيالي الهويّة بوصفها«العملية التي من خلالها تفرض الثقافة الأقوى وكذلك المجتمع الأكثر تقدما،نفسها بالقوة على أولئك الذين حكم عليهم – بمقتضى منطق الهوية بأن يكونوا أناسا في درجة أدنى »[25].

لذلك كانت الهويّة العربيّة مبعثا للإحراج في مدارس الكولونياليين لأنّ الهويّة الغربيّة هي الهوية المركزية المتحضرة والمشعة ثقافيا في حين كانت صورة هوية العربي النمطية هوية دونية.

يتضح أن مفارقة الانتماء بدأت منذ أحس إدوارد سعيد بأنّه غريب في مدراس القاهرة إذ يتحدث عن هذه المفارقة «إنني كنت في مصر ولكنّي لست مصريا،وأنا عربي ولكني لست مسلما وأنا مسيحي ولكني بروتستانتي ولست مسيحيا كاثوليكيا وأنا ناطق بالانجليزية ولكنني لست انجليزيا وأنا أمريكي ولم يسبق لي أن ذهبت إلى أمريكا »[26].

إن الإحساس بعدم الانتماء في القاهرة ولد لدى إدوارد سعيد شعورا بأنه خارج حدود المكان باعتباره لا يملك هوية مثله مثل أي إنسان آخر، وقد تثاقل هذا القلق

الهووي عندما تعرّض جسده لكم من الإصلاحات من خلال نظرة والديه إلى جسده على أنه يعاني تشوهات لابد من إصلاحها «بل وإعادة تكوينه من الأساس ... وإذ أستذكر وعيي لجسدي منذ سن الثامنة فصاعدا، أراه منحبسا في نظام صارم من التصحيحات المتكررة تمت كلها بأمر من أهلي، وأدى معظمها إلى تفاقم نقمتي على ذاتي»[27].

وكأنّ الذّات العربيّة التي سكنت جسد إدوارد سعيد في القاهرة تتعرّض للتّعديل ومن وجهة نظر أبيه صاحب الجنسية الأمريكية،لنعود من جديد إلى شرعية السلطة الكولونيالية على الشرق، فجسد إدوارد يتعرض للإصلاح من قبل ذات غربية، حتى يأخذ شكل الأمريكي، وهنا يقع أفضل تجسيد لهيمنة الآخر على الذات وجعلها ترضخ لسلطة من يمتلكون القوة وكأن جسد ادوارد سعيد يمثل الشرق في حين والده يمثل الغرب، فوالده «عندما كان في الولايات المتحدة تأثر أيّما تأثر بغريغوري سانداو، بطل كمال الأجسام الأسطوري ذي الصدر المتضخم النمو والظهر المستقيم، الذي مثل في فيلم " عوليس" فقال لي أبي ذات مرة أن ما يصلح لسانداو يجب أن يكون صالحا لك »[28].

مثل جسد إدوارد سعيد هويته العربية المحكوم عليها بالضعف،مشفوعة بقبول الإصلاح من قبل ذات غربية قوية، همها تقويم اعوجاج هذه الذات وجعلها أكثر انسجاما مع ذات غربية تعيش في بيئة عربية،إذن هي قمة المفارقة.

حين عودتنا إلى السيرة الذّاتية خارج المكان والطريقة التي يسرد بها إدوارد سعيد اعوجاج جسده وتشوّهاته،وكيفية التعامل مع هذا الاعوجاج من قبل والده نجد أن الجسد رمزية استعارية للهويّة العربيّة الفاقدة للرّقي الحضاري،وبالتّالي كان من واجب صاحب الهوية الأرقى إصلاح هذه الهوية وجعلها أكثر سوية فتغدو بذلك الهوية «العملية التي من خلالها تفرض الثقافة الأقوى وكذلك المجتمع الأكثر تقدما نفسها بالقوة على أولئك الذين حكم عليهم بمقتضى منطق الهوية بأن يكونوا أناسا مصنفين في درجة أدنى »[29].

ما فتئ هذا القلق الوجودي و الهووي يزداد أكثر فأكثر مع المنفى الذي لازم حياة ادوارد سعيد وكأنه قدره المحتوم بأن يعيش قلقا حول ماهيته، ومن يكون؟ إذ كان يحسد الناس من حوله كونهم مسلمين /مصرين أو مسلمين/فلسطينيين، ويساوره شعور دائم بأنه ليس كما يجب[30]، هذا الشعور أحسه في منفاه في القاهرة وتضاعف أكثر حينما كان في منفاه في الولايات المتحدة الأمريكية، كونه غريب إلاّ أنه يحمل الجنسية الأمريكية وفي الوقت ذاته ينتمي إلى فلسطين باعتبارها بلد وموطن المولد، والهوية على حد تعبير درويش أنها بنت الولادة،فقد كانت الهوية بالنسبة إليه كما هي عند جان بودريار أنها «حلم من العبثية الحزينة فالفرد يحلم أن يكون نفسه عندما لا يملك أن يفعل ما هو أفضل من ذلك إنه يحلم بالذات عندما يفقد كل خصوصيته»[31].

ولكن السؤال الذي نطرحه هل فقد إدوارد سعيد خصوصيته في منفاه في الولايات المتحدة الأمريكية؟ وهل سيرته الذاتية هي إعادة تكوين للهويّة باعتبار أنّ «خطاب الهويّة يحاول دائما التّمرجع إلى أصل يريد هو بدوره تأسيسه أو إعادة إنتاجه »[32]؟

لا غرو أنّ التّمرجع إلى الأصل طبيعة إنسانية لكن مفارقة الانتماء تظهر بشكل واضح في كونه «ناشطا سياسيا فلسطينيا يحمل جواز سفر أمريكي، ولكونه يكلم الأمريكيين والغربيين عموما بلغتهم وبأسلوب بالغ الذكاء والتمكن الثقافي والسياسي على الرغم من أصله العربي الفلسطيني»[33].

ذلك هو إدوارد سعيد الناقد الفذ الذي استطاع أن يقوض سكينة الغرب ويجعلها مرتبكة أشد الارتباك وكأن ارتباك الهوية وقلقها لديه كان بمثابة سلاح موجه إلى الولايات المتحدة أمريكية التي ظلت ولزمن طويل تدعم اليهود لأجل البقاء في أرض ليس لهم الحق فيها، فكان له أن يتقلّد منصب النّاطق الرّسمي باسم القضيّة الفلسطينية وإن لم يكن قد حدد انتماءه لها مكانيا فإن إحساسه « بفلسطين ظل يدور حول فلسطين الفكرة لا المكان الفعلي »[34]، فظلت بالنسبة إليه المكان المفقود الذي

استعاده عن طريق الكتابة التي دافع بها عن حق فلسطين وعن جميع الأقليات التي تعاني التهميش بفعل المركزية الغربية.

كان إدوارد سعيد يبحث عن بديل ينفي من خلاله فكرة صدام الحضارات فيما يدعوه بالهجنة الثقافيّة ذلك أنّ «فكرة التعددية الثقافية أو الهجنة . التي تشكل الأساس الحقيقي للهوية اليوم . لا تؤدي بالضرورة دائما إلى السيطرة والعداوة بل تؤدي إلى المشاركة وتجاوز الحدود وإلى التواريخ المشتركة والمتقاطعة،وإنّه لعلى قدر كبير من الأهمية أن نتذكر ذلك في وقت يحاول فيه متطرفون مثل صامويل هنتنغتون أن يقنعوا العالم بأن صدام الحضارات أمر محتوم لا مفر منه»[35].

فقد تحقّقت الهجنة الثقافيّة فعلا في كيان إدوارد حينما تعايشت في دواخله الثقافتين العربية والغربية،دون أن تتغلب إحداهما عن الأخرى بل تفاعلتا في شكل حوار خدم الإنسانية من خلال فكر أراد أن يكون حرا مبشرا بميلاد العبور والتجاوز رافضا السلطة بشتى أنواعها، ولكن تبقى الهجنة الثقافية حلما لم يتجسد بعد لأن الآخر أراد أن يستقل عن طريق تجسيد هوية بإمكانها أن تتصدّى لهوية الأنا الغربية، و لأنّ الصراع الإيديولوجي بين الشرق و الغرب لا زال قائما مادام الغرب يواصل هيمنته على الشرق.

خاتمة :

بإمكاننا القول في النهاية إن:

_ المنفى وحياة الارتحال التي عاشها إدوارد سعيد متنقلا بين أماكن كثيرة فلسطين لبنان، القاهرة، الولايات المتحدة الأمريكية فرضت عليه العيش ضمن أقلية هجينة لا هي بالعربية كليا ولا هي بالغربية كليا .

_ المنفى عند إدوارد سعيد هو إعادة بناء سرديّة الأنا الفلسطينيّة في عالم غربي تجسّده الولايات المتّحدة الأمريكية التي تدعم الكيان الإسرائيلي لمحو التّاريخ الفلسطيني.

_ بدايات الكتابة وحضور اللغتين العربيّة والإنجليزيّة وانشقاق اللّسان أينطق العربية أم الانجليزية؟ كل هذا ساهم في ازدياد القلق وانبعاثه، لكن هذا القلق الوجودي

والهووي في حياته جعل منه ناقدا مفكرا وأديبا في الولايات المتحدة الأمريكية مقوضا كل ما هو أصولي ومقدس ونقي مناديا إلى ضرورة الهجنة الثقافية؛ لأن الهويات والثقافات متشابكة وبخاصة بفعل الهجرات والحروب الكولونيالية فهي ثقافات تأخذ من بعضها البعض لا متناقضة ومتصارعة، فهي في شكل حوار دائم كما تحاورت في ذاته الثقافات.

_موقعه البيني جعله يقول بأن الثقافات هي أيضا واقعة في المنطقة البينية وهي منفتحة كل مع بعضها البعض، لأنه وجد أن الخطابات المنادية إلى سياسات الهوية هي خطابات سلطة ومركزية وتحاول كل منها تحديد هوية الآخر على أنه دوني ومتخلف فكانت الهجنة الثقافية متحققة على مستوى الذات إلاّ أنّها لم تتحقّق على أرض الواقع كون العالم يعيش حالة من الصراع الإيديولوجي.

مراجع البحث:

أوّلا. المراجع العربيّة:

1_سعد البازعي،قلق المعرفة،إشكاليات فكريّة و ثقافيّة،المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء/ المغرب،ط1،2010.

2_عبد الله إبراهيم،السرد والاعتراف والهويّة،المؤسّسة العربيّة للدراسات و النشر بيروت،ط1،2011.

3_عبد الله إبراهيم،الكتابة والمنفى آدونيس وآخرون،المؤسسة العربيّة للدّراسات والنّشر ،بيروت/لبنان،ط1،2012.

4_علي بدر، مصابيح أورشليم رواية عن إدوارد سعيد، المؤسسة العربيّة للدّراسات والنّشر، بيروت، ط2 ،2009.

5_فخري صالح،إدوارد سعيد دراسات و ترجمات،منشورات الاختلاف،الجزائر،ط1 2009.

ثانياالمراجع المترجمة:

1_ إدوارد سعيد، تأملات حول المنفى، تر: ثائر ديب، دار الآداب، بيروت، ط2، 2007

2_ إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، تر: كمال أبو ديب، دار الآداب للنّشر والتوزيع، لبنان ط3، 2004.
3_إدوارد سعيد، خارج المكان، تر: فواز طرابلسي، دار الآداب، بيروت، ط1، 2000.
4_طوني بنيت، لورانس غروسبيرغ، ميغان موريس، مفاتيح اصطلاحيّة جديدة، معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع، تر: سعيد الغانمي، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، ط1، 2010.
5_ غاوري فسواناثان، السلطة والسياسة والثقافة، حوارات مع إدوارد سعيد، تر: نائلة قلقيلي، حجازي، دار الآداب، بيروت، ط1، 2008.
6_هارلميس وهولبورن، سوسيولوجيا الثقافة والهويّة، تر: حاتم حميد محسن، دار كيوان للطباعة والنشر والتوزيع، سوريّة، ط1، 2010.

ثالثا. المقالات العربيّة

1_ عبد الله تركماني: « إدوارد سعيد: المثقف الكوني والهويّة المركّبة»، مجلة بصمات ع2، دار القرويين، الدار البيضاء، 2007 .
2_فيصل حصيد، عبد القادر نويوة: «ارتياب الكتابة بين حتميّة المنفى وسرديّة الانتماء إدوارد سعيد في (خارج المكان)»، مجلّة الآداب واللّغات، ع17، جامعة محمّد خيضر بسكرة، جوان2015 .

رابعا. المقالات المترجمة:

1_إدوارد سعيد:« الاختلاق و الذاكرة و المكان»، تر: خالدة حامد، مجلّة البحرين الثّقافيّة،ع2001،28.
2_إدوارد سعيد: «عن أعمال جان جنييه الأخيرة»، تر: تامر عبد الوهّاب، مجلّة البلاغة ألف، ع25، القاهرة، 2005.
3_إدوارد سعيد: « الهويات تعددية و المنفى حقل كريم»، تر: صبحي حديدي، مجلّة الكرمل، ع72 و73، رام الله، فلسطين، 2002.

4_جاكلين روز:« إدوارد سعيد يتحدّث مع جاكلين روز»، تر: محمّد بن زيدان، مجلّة بصمات، ع2، دار القرويين، الدار البيضاء، 2007.

الهوامش والمراجع المعتمدة

---

1 إدوارد سعيد، خارج المكان، تر: فواز طرابلسي، دار الآداب، بيروت، ط1،2000، ص22.

2 المرجع نفسه، ص 19.

3 المرجع السابق، ص 269.

4 إدوارد سعيد: «الاختلاق والذاكرة والمكان»، تر: خالدة حامد، مجلة البحرين الثقافية، ع 28 ابريل2001، ص74.

5 إدوارد سعيد، خارج المكان، ص 08.

6 المرجع نفسه، ص08.

7 المرجع السّابق، ص117.

8 المرجع نفسه، ص 120.

9إدوارد سعيد، تأملات حول المنفى، تر: ثائر ديب، دار الآداب، بيروت، ط2007 ،2، ص123.

10عبد الله إبراهيم، الكتابة والمنفى آدونيس وآخرون، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت/لبنان، ط1، 2012، ص 42.

11 محمد شاهين، إدوارد سعيد رواية للأجيال، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، بيروت ط2005،1،ص19.

12 المرجع نفسه، ص20.

13علي بدر،مصابيح أورشليم رواية عن إدوارد سعيد،المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت،ط2،2009،ص17.

14إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، تر: كمال أبو ديب، دار الآداب، بيروت، ط1998 ،2، ص 71.

15عبد الله إبراهيم، الكتابة والمنفى، ص81.
16المرجع نفسه، ص81.
17جاكلين روز: «إدوارد سعيد يتحدث مع جاكلين روز» تر: محمد بنزيدان، مجلة بصمات ع2، دار القرويين،الدار البيضاء،2007 ص 159.
18فخري صالح، إدوارد سعيد دراسة وترجمات، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط2009، 1، ص 50.
19 ادوارد سعيد، خارج المكان، ص 08.
20طوني بنيت، لورانس غروسبيرغ، ميغان موريس، مفاتيح اصطلاحية جديدة معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع، تر: سعيد الغانمي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط 1، 2010، ص 702.
21 هارلميس وهولبورن، سوسيولوجيا الثقافة والهوية، تر: حاتم حميد محسن، دار كيوان للطباعة والنشر والتوزيع، سورية، ط2010،1،ص97.
22 إدوارد سعيد، خارج المكان، ص91.
23 المرجع نفسه، ص 125.
24 المرجع السابق، ص 288.
25 ادوارد سعيد : « عن أعمال جان جينيه الأخيرة »، تر : تامر عبد الوهاب، مجلة البلاغة المقارنة ألف، ع 25، قسم الأدب الانجليزي والمقارن الجامعة الأمريكية، القاهرة 2001، ص 236.
26 ادوارد سعيد: «الهويات تعددية والمنفى حقل كريم»، تر: صبحي حديدي، مجلة الكرمل، ع 72 و 73، رام الله، فلسطين، صيف وخريف 2002، ص 104.
27 ادوارد سعيد، خارج المكان، ص 92 .
28 المرجع نفسه، ص 96 .
29 ادوارد سعيد: «عن أعمال جان جنييه الأخيرة»، ص 236.

30ادوارد سعيد، السلطة والسياسة والثقافة، حوارات مع إدوارد سعيد، تقديم: غاوري فسواناثان تر: نائلة قلقيلي حجازي، دار الآداب، بيروت، ط2008،1،ص 258.
31 إسماعيل مهنانة، ادوارد سعيد: الهجنة السرد الفضاء، ابن النديم للنشر والتوزيع، الجزائر ط1،2013،ص 22 .
32 إدوارد سعيد: «الهويات تعددية والمنفى حقل كريم»، تر: صبحي حديدي، مجلة الكرمل ع72 و73، الاتحاد العام للكتاب الصحافيين الفلسطينيين،رام الله،فلسطين،صيف وخريف 2002،ص 258.
33سعد البازعي، قلق المعرفة، إشكاليات فكرية وثقافية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/ المغرب، ط1،2010، ص 948.
34 إدوارد سعيد، « الهويات تعددية والمنفى حقل كريم »،ص105.
35- إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية (مقدّمة الكتاب)